اللسان المرّ

وعالم عبد الوهاب الأسوانى

يشتمل هذا الكتاب (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١) على روايتين قصيرتين أولاهما « اللسان المر » . أما الأخرى فهى « ابتسامة غير مفهومة » . وسنقصر حديثنا على الرواية الأولى .

وماتزال البيئة الأسوانية شبه الريفية شبه الصحراوية حيث يضيق وادى النيل هى مسرح الأحداث الأثير عند عبد الوهاب الأسوانى فى روايته « اللسان المر » ، بينما بيئة القاهرة والإسكندرية هى مسرح الأحداث فى روايته « ابتسامة غير مفهومة » ، وهذا التقابل بين بيئتى الروايتين كان قد جمع بينهما عبد الوهاب الأسوانى فى روايته الأولى « سلمى الأسوانية » والتقابل عنصر أساسى من عناصر البناء الروائى عند عبد الوهاب الأسوانى كما سنرى .

تبدأ حركة القصة فى « اللسان المر » من أولها سريعة ، ومن خلالها نتعرف – فى الفصل الأول – على معظم الشخصيات الرئيسية .

نتعرّف أولاً على « شيخ العرب شمروخ » وكرمه الباذخ وشخصيته المتباهية وقلبه الطيب . رجل فشخار يحب الافتخار كما وصفه معوض بن عبد الغنى الجوابرى . فهو يرتدى على رأسه عمامتين من البفتة – فى هذه البيئة الحارة « الشمس قاسية رغم فصل الشتاء » (ص ٣٠) – كل عمامة تزيد على خمسة أمتار ، وثلاثة جلاليب صوفية . وهو يوزع هداياه على أهل النجع على أثر وصوله من السفر . وتكون بتول بنت محمد على السوالمى من أوائل من يقابله . ورغم فارق السن بينهما إلاّ أنه حين ضمها إلى صدره أحس بنهديها المتمردين على صدره ، فسرت فى جسده رعدة . أمسك بذقنها الناعم وقبلها فى خدّها . . نسى نفسه وطالت القبلة أكثر مما يجب . ولقد أنّب شمروخ نفسه على تصرفه هذا مع بنت فى سن أولاده ، « تعصرها على صدرك ، تضايق خدّها الناعم بشعر ذقنك النابت ، ثم تزعم أنك أصيل النسب ، وأن جدّك

الأكبر كان من أصحاب رسول الله » (ص ٥) . وسيفسر هذا الموقف تصرفات شمروخ تجاه بتول فيما يلى ذلك من أحداث .

أما « بتول » فإن المؤلف يعرّفنا بها فى هذا الفصل على أنها فتاة تجمع بين الجمال والفقر . « استدارت لتخرج فتبعتها الأنظار . . . شالها القطيفة الأحمر المتآكل الأطراف ينسدل على قامة سمهريه وساقين برونزيتين ممتلئتين ، وقدمين كبيرتين حافيتين . حينما توارت عن الأنظار عادت إلى الواقفين عقولهم . » (ص ٥) .

ثم نتعرّف على « مغربية » التى أطلق عليها شمروخ « بنت كذاب القبيلة » ، كما وصفته هى بدورها بأنه « مرّ اللسان » . كما نتعرّف على العمدة الذى يقبل بدوره ليأخذ نصيبه مما يوزعه شمروخ من هدايا . ثم الشيخ علاّم الذى يستخدم فى حديثه لازمة فكهةً حين يصف الرجل أو المرأة بأنه مطين أو مطينة .

أما عبد الغنى الجوابرى والد معوض فإننا نتعرف عليه فى الفصل الثالث وهو يتصف بالبخل الشديد ، ومن هنا تنبع كل تصرفاته وفى مقدمتها موافقته أو عدم موافقته على زواج ابنه معوض من بتول .

ومن الحديث الذى يدور بين الشيخ علام والعمدة يضع المؤلف أيدينا على القضية المحورية لروايتنا . فبتول من قبيلة السوالم يتقدم لها معوض بن عبد الغنى من قبيلة الجوابر . « تكلم بشأنها مع أمها دون علم أهله » (ص ٩) . ولكن أباه رفض لأنه بخيل يريد أن يزوجه ابنة عمه حتى لا يتزوجها غريب يشاركهم فى أرضهم ونخلهم . بينما أرجع شمروخ هذا الرفض إلى أن الجوابر يقولون إن نسب السوالم الذى ينتمى إليه بتول وشمروخ وعلام والعمدة نسب مشكوك فيه ولهذا يرفضون الزواج منهم ؛ لهذا أقسم ثلاثاً بالطلاق من نسائه الثلاث إن لم يتم هذا الزواج . وعندما حاول العمدة والشيخ علام أن يثنياه اتهمها بالمداهنة وأنهما يعتبرانه مجنوناً يحلف بالطلاق من غير تفكير . فانصرف العمدة بينما اتهم الشيخ علام شمروخ بأنه يريد خراب البلد . « يافقرى الوجه ، يامر اللسان ، يابن زينب المطينة » . (ص ١٢) .

وفى الفصل الثانى يقدم لنا المؤلف شخصيتى معوّض وبتول . كما يقدم لنا تلك البيئة الأسوانية المتواضعة من خلال حركة الأحداث . لقد تعلم عبد الوهاب الأسوانى أن الفن الروائى فنّ ماكر ، لهذا توارى فى الرواية الجانب التسجيلى – إلاّ فى حالات قليلة – وحرص على أن يجعله يتخلّل العمل الفنى فلا ينفصل عن الجانب الحركى . فقد كان الفصل بين

الجانبين الحركى والتسجيلى أو الدرامى والوصفى أو التصويرى والتقريرى ممّا أخذ عليه فى روايته سلمى الأسوانية . ففى هذا الفصل يُطلعنا المؤلف – من خلال حركة معوض وبتول وما يدور بينهما من حوار – على جانب من طبيعة هذه البيئة الأسوانية . فنستحضر غابة النخل التى تلتقى فيها بتول بجرتها مع معوض بحماره ، والصحراء على شاطىء والمصانع على الشاطئ الآخر . وما تنتجه الأرض من محاصيل كالقمح والبلح والمانجو والترمس . ويضع ألفاظًا متناثرةً هنا وهناك مما يستخدم فى البيئة كأنها البهارات تضفى لونًا محليًّا على الحوار مثل : أريدك بمعنى أحبك ، ومحقوق أى مخطئ ، والشّطر أى الثدى ، والقسم ببحر الله الطاهر ، ونستمع إلى اللهجة فإذا هى خليط من البدوية والصعيدية والسودانية . والروح القبلية التى تهيمن على النظام الاجتماعى . وتقاليد الجنازات ، فعندما يموت رجل من السوالم ينزل الكل إلى المناحة وتضرب الطبول عليه سبعة أيام .

وفى الفصل الثالث يقدم لنا المؤلف والدى معوض . أما فى الفصل الرابع فيقدم لنا مولد الشيخ عامر وينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام : القبائل النوبية تتوافد على المولد ، ومن خلال متابعة تحركات معوض وبتول نعرف لمحةً عن المولد وجذوره التاريخية . ثم يتسلل معوض من المولد وتتسلل وراءه بتول إلى منزل تلك المرأة الزنجية مفرطة البدانة « كهرمان » التى نجحت فى أن تهيئ لها جو الخطيئة فارتكباها ، إذ قدمت لمعوض خمر العرق ، وشجعتهما على الانفراد بإحدى حجرات المنزل التى أغلقا بابها ، بينما كانت هى تتلصص عليهما باشتهاء يفضح دوافعها الكامنة التى تتلهّف على رؤية وقوع الخطيئة ، لأنها – فيما يبدو – محرومة من أية علاقة سوية فى عالمها الخاص . وتعتبر كهرمان هى المقابل لشمروخ الذى يحاول الجمع بين الحبيبين شرعًا وعلنًا ، وإن كان بدافع شبيه بدافع كهرمان ولو أنه أكثر خفاء . ونعود أخيرًا إلى المولد لنجد أن العطش قد استبدّ بنساء السوالم ، واستنجدن بشيخ العرب شمروخ . فأسرع – بما عرف عنه من شهامة وفشخرة معًا – فى جلب السقائين من على شاطئ النيل على بعد ساعتين من المولد . فتحرك موكب ضخم طويل أوّله حمير وآخره جاموس ، وشمروخ يركض بجواده فى المقدمة والمؤخرة والوسط ، « أنت أسرع . . وأنت أمسك القربة جيدًا . . وأنت هل تريد مساعدة ؟ أسرعوا وليكن فى علمكم عند دخول المولد كلّ واحد منكم يخرج من فمه صوتًا « أر . . . أر . . . أر . . . » لحماره كى ينهق . سأعطيكم إشارة خاصةً ، عندما أريد للحمير أن تنهق . أريدها كلها أن تنهق دفعةً واحدةً ، وفى لحظة واحدة مفاجئة . يجب أن يكون

الموكب مثل يوم القيامة . لابدّ أن يجعل أهالى القرى يتحدثون عنه سنة كاملةً بعد عودتهم إلى قراهم . فاهمين . أنا أدفع فى القربة الواحدة ستة قروش » . (ص ٣٦) وقد كان نجاح شمروخ فى إرواء عطاشى المولد تمهيدًا أو تنبؤًا بنجاحه فى تزويج معوض وبتول .

ومن زاوية مقابلة يلتقط المؤلف الموقف مرةً أخرى عن طريق بضعة سياح ببنطلوناتهم القصيرة وآلات تصويرهم معلقة فى أعناقهم يحدقون فى هذه الجموع البدائية ، والجموع فى مقابل ذلك تشير إليهم وتقول « انظروا إلى البلهاء » . (ص ٣٠) . ومرةً عن طريق طالب جامعى يقول لزميله ذى السوالف الطويلة : تفرج على منظر أهالى النجوع البعيدة وقرى غرب النيل . لو جاء بعض الصحفيين الأجانب هنا لفضحونا فى صحف أوربا (ص ٣٩) .

وتستنجد أم بتول بشيخ العرب شمروخ بعد أن تروى له ما وقع بين ابنتها ومعوض ، فيضع خطته التى يبدأها – بمعاونة بعض الشبان المتحمسين – باختطاف معوض ، ثم يختطف محمد على السوالمى والد بتول فى شوال ، ثم يرسل الدعوات طالبًا نقوطه الحقيقية فقد كتب فى الدعوات أن معوض ابنه . ويتم العرس . وتحوّل نجع السوالم إلى زحام يفوق زحام مولد الشيخ عامر لمشاهدة غوازى مدينة إسنا اللاتى أحضرهن شمروخ . وبعد العرس يذهب شمروخ لفكّ وثاق محمد على السوالمى فيجده قد مات – ربما كمدًا – فتقبض عليه الشرطة ويخرج من قريته فى طريقه إلى السجن مرفوع الرأس . إن عبد الوهاب الأسوانى حرص ألا يترك إحدى الكفتين مرفوعة ، فبعد أن نفرح معه بشهامة شمروخ وبخاصة نجاحه فى حلّ هذا المأزق ، ونحتفل معه بهذا العرس الباذخ ، نعود فننقبض لتلك الليلة التى مات فيها والد العروس وقبض بسببها على شمروخ . ونلاحظ هنا أنه إذا كان رفض زواج معوض من بتول يقوم على أسس قَبَلية ، فإن فرض زواجها تم على الأساس القَبَلى نفسه .

إن عبد الوهاب الأسوانى حرص على أن يقوم بناؤه الروائى على أساس نقطة مقابل نقطة كما عبر عن ذلك الأستاذ سامى خشبة فى مناقشة إذاعية حول هذه الرواية . فهو يقدم أوّلاً بيئته الأسوانية بحب ورفض معًا كما جاء فى صفحة الغلاف الأخيرة للرواية . وهو يقدم الخلفية العامة لروايته كالبيئة الجغرافية أو الطبيعية والاجتماعية ، فى مقابل التركيز على لقطات محددة وجزئيات بعينها . هناك أيضًا تقابل بين الشيوخ كالعمدة والشيخ علاّم ومحمد على السوالمى والد بتول وعبد الغنى الجوابرى والد معوض الذين وقفوا يحولون دون زواج بتول من معوض أو على

الأقل لم يتحمسوا له ، وبين الشباب الذين عاونوا شمروخ فى فرض هذا الزواج باختطاف معوض ووالد بتول ثم كتابة الدعوات وإعداد حفل الزواج وإنجاحه .

وتقابل آخر بين عالم الرجال وعالم النساء ، حيث ينفصل العالمان طبقا للتقاليد ولا ينفصلان طبقًا لواقع الحياة . فالنساء والرجال يتقابلون فى السوق وفى المولد وعلى القوارب والمراكب ، ومن الممكن للمرأة أن تدخل مجتمع الرجال وتحصل على هديتها كما فعلت بتول ، وأن تقول رأيها فيهم بل تشتمهم كما كانت تفعل جدّة مصطفى فى رواية « سلمى الأسوانية » ومنصورة زوجة الشيخ درويش فى رواية « وهبت العاصفة » (١٩٧١) . يمكن أن يحدث هذا اللقاء الشكلى ، بينما هناك انفصال نفسى بين العالمين .

وهناك التقابل بين كهرمان وشمروخ ، كل يريد أن يجمع بين معوض وبتول . كهرمان تدفعها دوافع شهوية أوضح وأعنف ونجحت فى أن تجمع بينهما فى الخطيئة وفى سريّة . وشمروخ تدفعه دوافع جنسية أكثر خفاءً ، ونجح فى أن يجمع بينهما علنًا وشرعًا .

ثم نصل إلى تلك النهاية ذات الطرفين المتقابلين : نهاية سعيدة بالنسبة لمعوض وبتول ، ونهاية مفجعة بالنسبة لوالد بتول وشمروخ ، فننتقل من زغاريد العرس إلى ولولات الموت ووحشة السجن ، من ماض عرفناه إلى مستقبل مجهول المصير .

هناك أخيرًا ذلك التقابل بين قبيلتى السوالم الكثيرة العدد ، الفقيرة الكسولة المشاغبة . وقبيلة الجوابر القليلة العدد الدمثة التى تتمتع بمستوى معيشى أفضل .

والواقع أن محورًا رئيسيًّا من محاور البناء الروائى عند عبد الوهاب الأسوانى هو هذا التقابل القبلى . نجده فى رواية سلمى الأسوانية بين قبيلتى البراطيم الكثيرة العدد والمساعيد قبيلة مصطفى راوى القصة الأقل عددًا والأكثر شجاعةً ، وتصل الخلافات بين القبيلتين إلى حافة المعركة دون نشوب المعركة ذاتها . كذلك فى روايته « وهبت العاصفة » بين أهل السبيل الكثيرى العدد وأهل الشرقية الأقل عددًا والأكثر شجاعةً . وإذا كان التقابل القبلى يمثل رافدًا جانبيًّا فى « سلمى الأسوانية » ليحل محله تقابل أشمل بين المجتمع الحضرى متمثلاً فى الإسكندرية والمجتمع شبه البدوى المتمثل فى النجع بجزيرة المنصورية بمديرية أسوان ، فإن التقابل القبلى فى رواية « وهبت العاصفة » هو محور الرواية الرئيس وأساس الصراع الدرامى من أوّلها إلى آخرها ، ويصل الصراع بين المجموعتين إلى حافة الحرب أيضًا دون وقوعها ،.وتتكثف حدّة

الصراع حين تتوقف على نهايته مصير العلاقة العاطفية بين حسين من أهل الشرقية وبدوية من أهل السبيل . أما الخلاف القبلى فى « اللسان المر » بين السوالم والجوابر فلم يرتفع إلى حدّ التأهب للحرب ، لكنه كائن ومعترف به بحيث أصبح أساسًا من أسس الحياة اليومية . وليست علاقة معوض ببتول إلا إدانة لهذا الخلاف ، وليس ما ارتكباه من علاقة غير مشروعة إلا تصعيدًا لهذه الإدانة .

ونلاحظ أن هناك دائمًا من يمنع التصادم من الوصول إلى ذروته ، فنجد الشيخ محارب فى رواية « سلمى الأسوانية » ، والشيخ موسى الكاظم فى رواية « وهبت العاصفة » والشيخ شمروخ فى « اللسان المر » . ولكن « اللسان المر » تنفرد بأن العلاقة بين معوض وبتول تحدّت الشريعة القبلية مرتين : مرةً بنشأة العلاقة نفسها ومرةً باقترافهما ما هو محرّم حتى على فردين فى القبيلة نفسها . وبقدر ما كان هذا التصعيد فى العلاقة بينهما ، بقدر ما كانت نهاية الوسيط هنا أكثر مأساوية ، فقد أنقذ الشيخ شمروخ غيره على المستويين الجماعى والفردى ولكن على حساب مصيره ، وهو ما لم يحدث للوسيطين فى الروايتين الأخريين .

فالصراع على المستوى القبلى تقابله علاقة حبّ بين طرفين على مستوى فردى . ولئن كان الصراع على المستوى القبلى يضفى توترًا على علاقة الحب على المستوى الفردى ، فإن الحب على المستوى الفردى – ومن خلال هذين الفردين – يكشف هذا الصراع ويدينه ويرفضه . وإذا اعتبرنا مجتمع عبد الوهاب الأسوانى فى جزيرته النيلية الصغيرة القابعة فى أعماق صعيد مصر رمزًا للمجتمع الإنسانى ، « سكان الجزيرة لا يعترفون بأن بلدتهم مجرد جزيرة تتوسط نهر النيل . . . يعتقدون أنها إمبراطورية مترامية الأطراف من حقّها أن تتعامل مع القرى التى تجاورها كما تتعامل إمبراطورية عظيمة مع البلاد التى تقلّ عنها شأنًا » . (سلمى الأسوانية ، ص ١٠) فمن حقّنا أن نخلص إلى أن البناء الروائى عند عبد الوهاب الأسوانى له هدف موضوعى هو إدانة التعصّب ورفضه والحنو على الحبّ ورعايته .